نظرية ميلاني كلاين - Melanie Klein Theory

تلخيص: د. محمود صبحي سعيد

تُعد النظرية التحليلية النفسية لميلاني كلاين (1882–1960) من أبرز التيارات المؤثرة في تطور التحليل النفسي الكلاسيكي Classical Psychoanalysis وقد أسهمت في تطوير فهم بنية الشخصية والدوافع النفسية، خاصة في مرحلة الطفولة المبكرة. ويُصنَّف منظورها ضمن الاتجاهات الأقرب إلى نظريات الدوافع والبنيوية Drive and Structural Theories لما يركز عليه من ديناميات داخلية للصراع النفسي وتكوين الذات والأنا العليا.

على عكس فرويد Freud الذي لم يُجرِ عملًا تحليليًا مباشرًا مع الأطفال، تُعد كلاين من أوائل من طبّقوا التحليل النفسي على الأطفال Child Psychoanalysis، وهو ما منح نظريتها طابعًا تطبيقيًا مبكرًا ومختلفًا. وقد بدأت مسيرتها العلمية في بودابست، حيث خضعت لتحليل نفسي مع ساندور فيرينكزي Sándor Ferenczi بين عامي 1910–1919، الأمر الذي شكّل نقطة تحول أساسية في توجهها المهني.

لاحقًا، لفتت أعمالها عن تحليل الأطفال انتباه كارل أبراهام Karl Abraham، الذي دعاها للعمل في معهد التحليل النفسي في برلين Berlin Psychoanalytic Institute، حيث خضعت لتحليل إضافي انتهى بوفاته عام 1925. ثم انتقلت بعد ذلك إلى لندن، حيث استقرت حتى وفاتها عام 1960، وأسهمت بشكل محوري في تشكيل المدرسة البريطانية للتحليل النفسي British Psychoanalytic School.

وقد أثارت أفكارها جدلًا واسعًا داخل الجمعية البريطانية للتحليل النفسي British Psychoanalytical Society، ثم امتد الجدل إلى المجتمع التحليلي النفسي الدولي. وعلى الرغم من أن كلاين كانت تعتبر نفسها امتدادًا لفكر فرويد، إلا أن عدداً من المحللين اعتبروا نظريتها انحرافًا أو تطويرًا جذريًا عن المدرسة الفرويدية. وقد تجسّد هذا الجدل في النقاشات الشهيرة مع آنا فرويد Anna Freud، مما أدى إلى انقسام داخل المدرسة البريطانية بين تيار كلايني Kleinian School وتيارات أخرى، من بينها تيار دونالد وينيكوت Donald Winnicott، الذي اتخذ موقفًا وسطيًا نسبيًا.

ومن أبرز الانتقادات الموجهة لنظرية كلاين أنها ذات طابع تخيلي وتأويلي مفرط Speculative and Interpretive، حيث تعتمد على بناءات نظرية واسعة وتعميمات سريرية لا تستند دائمًا إلى منهج تجريبي صارم. ومع ذلك، فقد أنتجت هذه المقاربة نظامًا نظريًا غنيًا ومعقدًا يتميز بعمق في تفسير العمليات اللاواعية Unconscious Processes، رغم ما يُؤخذ عليه من غموض في الصياغة وتداخل المفاهيم.

نظرية الغرائز Instinct Theory

تركز كلاين على التطور المبكر للغرائز النفسية، خاصة خلال السنة الأولى من الحياة، حيث ترى أن الديناميات العدوانية Aggression تظهر منذ الولادة بوصفها تعبيرًا عن غريزة الموت Death Instinct Thanatos وتتمثل هذه العدوانية في صور أولية مثل السادية الفموية Oral Sadism والتخيلات اللاواعية المرتبطة بأكل الكائن الآخر Cannibalistic Phantasies، والتي تُسقَط لاحقًا على كائنات خارجية في شكل مخاوف (ملاحقة) اضطهادية Paranoid Anxieties.

وترى كلاين أن هذه العدوانية تتعزز بفعل صدمة الولادة Birth Trauma وبفعل الإحباطات المبكرة الناتجة عن العلاقة مع الأم، وخاصة فيما يتعلق بتجربة الإرضاع الأولى. ومع تطور النمو النفسي، تتحول هذه الميول العدوانية إلى أنماط دفاعية داخلية، تتجلى في الانقسام والإسقاط.

كما تشير إلى أن مشاعر مثل (الغيرة)-الحسد Envy تُعد من أقدم أشكال العدوان الفموي، حيث ينشأ الحسد من تجربة إدراكية مفادها أن الآخر يمتلك شيئًا مرغوبًا لا يمتلكه الفرد، ما يؤدي إلى رغبة لاواعية في تدمير هذا المصدر. ويُسهم الحسد في تعزيز الجشع Greed ويقوّض القدرة على الامتنان Gratitude.

في المقابل، يُعد الامتنان عنصرًا أساسيًا في بناء العلاقة الجيدة مع الآخر Good Object Relation، إذ يعكس القدرة على تقبّل الخبرات الإيجابية دون تدميرها، وهو ما يساهم في بناء ما تسميه كلاين "الذات الجيدة " Good Self ويُعد هذا البناء أساسًا للنمو النفسي، والتعلُّم، وتكوين علاقات بينية مستقرة.

القلق والآليات الدفاعية Anxiety and Defense Mechanisms

ترى كلاين أن القلق البدائي Primitive Anxiety ينشأ من الصراع بين غريزتي الحياة والموت، ويتجذر منذ المراحل المبكرة جدًا من الحياة النفسية. ويتحول هذا القلق إلى مخاوف (ملاحقة) اضطهادية Persecutory Anxieties، حيث يُسقَط التوتر الداخلي على كائنات خارجية تُدرَك كَتَهديد.

وتلعب آليات الإسقاط Projection أو الإدخال\التذويت Introjection دورًا محوريًا في تشكيل بنية الأنا Ego Development، فالإسقاط يسمح بإخراج الخبرات المؤلمة أو العدوانية نحو الخارج، بينما يعمل التذويت على إدخال الخبرات الإيجابية أو السلبية إلى البنية الداخلية للفرد، مما يسهم في بناء العلاقات البينية الداخلية Internal Object Relations .

العلاقات البينية Object Relations

تُعد نظرية العلاقات بين الكائنات Object Relations Theory من أبرز إسهامات كلاين، حيث ترى أن الطفل لا يدرك الكائنات النفسية بوصفها كليات منذ البداية، بل ك" كائنات جزئية" Part-Objects، مثل الثدي Breast، قبل أن تتطور لاحقًا إلى كائنات كلية Whole Objects.

وتُقسم الخبرات النفسية المبكرة إلى ثنائية الخير والشر، حيث يُدرَك "الثدي الجيد Good Breast" كمصدر للإشباع والحب، بينما يُدرك "الثدي السيئ Bad Breast" كمصدر للإحباط والعدوان. ويؤدي الانقسام Splitting إلى فصل هذه الخبرات عن بعضها، وهو آلية دفاعية مركزية في المرحلة المبكرة من التطور النفسي.

ومع تقدم النمو، يبدأ الطفل بدمج هذه الصور المتناقضة، مما يؤدي إلى ظهور القدرة على تحمل التناقض Ambivalence وإدراك الكائن بوصفه كليًا.

المواقف الذهانية التطورية Paranoid-Schizoid & Depressive Positions

تُميز كلاين بين موقعين نفسيين أساسيين *Psychic Positions* بدلاً من مراحل عمرية ثابتة:

1. **الموقف الاضطهادي الفُصامي Paranoid-Schizoid Position**

   يتميز باستخدام الانقسام *Splitting*، والإسقاط *Projection*، والإنكار *Denial*، حيثُ يُقَسَّم العَالَم إلى كَائِنات جَيِّدة وأُخرى سَيئة. ويُهيمن عليه القلق الاضطهادي *Persecutory Anxiety*، ما يجعله أساسًا لبعض البنى الذهانية مثل الفصام *Schizophrenia* والبارانويا *Paranoia*.

2. **الموقف الإكتئابي Depressive Position**

   يظهر عندما يبدأ الفرد في إدراك الكائن بوصفه كليًا، مما يؤدي إلى الشعور بالذنب *Guilt* نتيجة

إدراك أن الكائن نفسه يحتوي على الخير والشر معًا. ويؤدي ذلك إلى نشوء الحاجة إلى الإصلاح النفسي *Reparation* والقدرة على التحمل العاطفي للتناقض .

آليات الدفاع والتنظيم النفسي

تشير كلاين إلى مجموعة من الآليات الدفاعية الأساسية، أبرزها:

- الانقسام *Splitting* فصل الخبرات الجيدة عن السيئة بشكل جذري.
- المثالية *Idealization* تضخيم الصفات الإيجابية للكائن، كوسيلة دفاع ضد الإحباط.
- الإنكار *Denial* رفض الاعتراف بالخبرات المؤلمة أو العدوانية.
- الإسقاط *Projection* نقل المشاعر الداخلية إلى كائنات خارجية.

وتؤكد أن الإفراط في هذه الآليات يؤدي إلى اضطراب في تكامل الأنا Ego Integration ويعيق النضج العاطفي Emotional Maturation.

تماهي الإسقاط والعمليات الذهانية (Projective Identification and Psychotic Processes)

يُعدّ التماهي الإسقاطي Projective Identification من المفاهيم المركزية في نظرية ميلاني كلاين، ويشير إلى عملية دفاعية معقدة يقوم فيها الفرد بإسقاط أجزاء داخلية غير مقبولة من الذات Split-off Parts of the Self على كائن خارجي، ثم يعاد إدخالها بطريقة تجعل هذا الكائن وكأنه يحمل تلك الصفات المُسقَطَة. وبهذا المعنى، لا يقتصر الإسقاط على إخراج المحتوى النفسي غير المقبول، بل يتضمن أيضًا ضغطًا لاواعيًا على الكائن الخارجي، ليتماهى مع هذه الصفات المسقطة ويجسدها. وغالبًا ما يرتبط هذا الدفاع بالمكونات العدوانية البدائية Primitive Aggression، ولا سيما تلك المرتبطة بغريزة الموت Death Instinct. وقد قام روزنفيلد (Herbert Rosenfeld, 1965) بتطوير هذا المفهوم من الناحية السريرية، خاصة في علاج الحالات الذهانية Psychotic Patients، حيث ركّز على دور التماهي الإسقاطي في تنظيم العلاقات البينية المرضية. كما أسهمت أعمال أوجدن Thomas Ogden, 1980 وغرينبرغ Jay Greenberg (1979) في توسيع الفهم الديناميّ لهذا المفهوم ضمن إطار العلاقات البينية Object Relations Theory.

البنية الذهانية والموقف الاضطهادي

Psychotic Organization and Paranoid-Schizoid Dynamics

في إطار البنية الذهانية المرتبطة بالموقف الاضطهادي الفصامي Schizoid Position Paranoid، تتسم التنظيمات النفسية بمجموعة من السمات، أبرزها: إنكار الواقع Denial of Reality، الاستخدام المكثف للتماهي الإسقاطي، والانقسام الحاد Splitting الذي يؤدي إلى تفتت\تجزئة الخبرة النفسية. في هذه البنية، قد يؤدي الانسحاب إلى الكائنات الداخلية، إلى حالات من الانغماس الذاتي الشديد Autistic-like States ، بينما يؤدي الانقسام المفرط وإعادة توزيع أجزاء الكائن إلى حالات من التشوش الذهني Confusional States.

وتُعدّ هيمنة القلق الاضطهادي Persecutory Anxiety سمة أساسية، حيث يُسقَط العدوان الداخلي على كائنات خارجية، تُدرك بوصفها مصادر تهديد. وقد يمتد هذا الإسقاط إلى الجسد ذاته، مما يؤدي إلى ظهور أوهام جسدية Hypochondriacal Delusions أو مخاوف من التسمُّم أو السيطرة الخارجية. ويعكس ذلك طبيعة العلاقات البينية في الشخصية الفصامية Schizoid Personality Organization، والتي تتسم بسطحية المشاعر، وضعف تحمل الذنب، والانقسام بين الانسحاب الداخلي والتكيف الاجتماعي الظاهري.

الموقف الاكتئابي Depressive Position

تشير كلاين إلى أن التطور النفسي في الأشهر الأولى من الحياة (نحو الشهر الخامس تقريبًا) يتجه نحو تقليل استخدام الانقسام Splitting، مع تطور متزايد في اختبار الواقع Reality Testing ونتيجة لذلك، يبدأ الطفل في إدراك الأم ككائن كلي Whole Object، يجمع بين الصفات الإيجابية والسلبية في آن واحد.

هذا الإدراك الجديد يولّد صراعًا داخليًا، إذ إن العدوان الموجّه نحو "الجزء السيئ" من الموضوع لم يعد ممكنًا دون تهديد "الموضوع الجيد" نفسه. ومن هنا تنشأ البذور الأولى للموقف الاكتئابي، حيث يُصبح العدوان مقيّدًا بالخوف من فقدان الموضوع المحبوب. ويرتبط هذا التحول بنشوء الشعور بالذنب Guilt الذي يُعد أحد المكونات الأساسية لتكوين الضمير Conscience ، ففي هذه المرحلة، تتداخل الصور الداخلية الجيدة والسيئة داخل الأنا العليا Superego ،مما يؤدي إلى مطالب مثالية صارمة قد تُنتج لاحقًا ميولًا قهرية Obsessive Traits.

آليات التكيّف في الموقف الاكتئابي Defensive and Reparative Processes

من أبرز الآليات النفسية في هذا الموقف:

1. الإصلاح أو الترميم Reparation

وهو ميل نفسي طبيعي يهدف إلى تقليل الشعور بالذنب تجاه الكائنات المحبوبة من خلال محاولة "إصلاح الضرر" المُتَخَيَّل. ويُعد الامتنان Gratitude والحب من القوى الدافعة لهذا الاتجاه، كما ترى كلاين أن هذه العملية تشكل الأساس النفسي للتسامي Sublimation.

2. تحسين اختبار الواقع Improved Reality Testing

يؤدي انخفاض الانقسام إلى زيادة القدرة على إدراك الواقع للكائن، مما يعزز تكامل الصورة النفسية للكائنات. كما يزداد وعي الطفل بإمكانية فقدان الكائن المحبوب، نتيجة التخيلات العدوانية، مما يدفعه إلى تعزيز الحفاظ على الصور الداخلية الإيجابية.

3. التردد أو التعايش مع التناقض Ambivalence

ينشأ من القدرة على إدراك الحب والكراهية تجاه نفس الكائن، وهو ما يسمح بدمج الخبرات المتناقضة ضمن تمثيل نفسي واحد متكامل.

4. الامتنان Gratitude

يتعزز الامتنان في ظل وجود شعور بالذنب، ويعمل على تقوية العلاقات البينية الإيجابية، ويحدّ من الجشع Greed، على عكس الحسد الذي يؤدي إلى التدمير النفسي للكائن.

تطورات مرضية في الموقف الاكتئابي Pathological Developments

كما أضافت كلاين لاحقًا (1948) آليتين دفاعيتين أساسيتين في مواجهة الموقف الاكتئابي:

- المثالية الدفاعية Defensive Idealization والتي تهدف إلى الحفاظ على الكائنات الجيدة رغم الصراعات الداخلية .
- الشعور بالانتصار Triumphalism وهو شكل دفاعي غير واعٍ، يتضمن إنكار الفقد وتحويله إلى إحساس بالقوة، لكنه يعزز الشعور بالذنب في العمق .

وقد تتطور هذه العمليات إلى أشكال مرضية، مثل:

- الحداد المرضي Pathological Mourning حيث يُدرَك فُقدان الكائن بشكل تدميري، مع سيطرة الأنا العليا القاسية Harsh Superego.
- الذهان الاكتئابي Depressive Psychosis حيث تُسقَط التخيلات التدميرية على العالم الخارجي أو الداخلي، مما يؤدي إلى رؤى كارثية Catastrophic Fantasies.
- الميول الانتحارية Suicidal Tendencies والتي تفسرها كلاين بوصفها محاولة لاواعية لتدمير "الذات السيئة" للحفاظ على "الذات الجيدة".

الموقف الاكتئابي وعلاقته بتطور الأنا العليا (Superego Development)

تؤكد كلاين أن الأنا العليا تتشكل مبكرًا جدًا، خلال السنة الأولى من الحياة، نتيجة إعادة تذويت (Re-introjection) الصور السيئة والجيدة التي تم إسقاطها سابقًا. ومع تطور الموقف الاكتئابي، تتوازن هذه الصور داخل الأنا العليا. غير أن الإفراط في المثالية الداخلية قد يؤدي إلى نشوء أنا عليا قاسية ومطالِبة بالكمال Harsh Superego، ما يخلق بيئة نفسية تميل إلى الشعور المزمن بالذنب، والانكماش النفسي، وأحيانًا الاضطرابات الذهانية.

عقدة أوديب المبكرة Early Oedipal Development

تؤكد كلاين أن جذور عقدة أوديب Oedipus Complex تظهر في وقت مبكر جدًا (1928) وترتبط مباشرة بالخبرات الفموية الأولى، خصوصًا العلاقة مع ثدي الأم Breast Object، تحديدًا مع نهاية السنة الأولى وبداية السنة الثانية من حياة الطفل، في مرحلة الفطام Weaning (وليس في المرحلة التناسلية كما افترض فرويد) ، أي في مرحلة ما قبل اكتمال النضج اللغوي والمعرفي. وتُعد الإحباطات الفموية والشرجية (Oral & Anal Frustrations) من العوامل الأساسية التي تُغذي هذه البدايات المبكرة للصراع.

ففي سياق الغيرة البدائية Primitive Envy، تنشأ رغبات عدوانية تجاه الكائن الأمومي، تتضمن تخيلات تدميرية، والتي تُسقَط لاحقًا على الأب ككائن تنافسي ضمن البنية الأوديبية. أما عند الذكور، قد تؤدي هذه التخيلات إلى قلق الخصاء Castration Anxiety وتصور الأب ككائن عقابي خطير، بينما عند الإناث تظهر

الغيرة الفموية على شكل حرمان أمومي وتوقع انتقام الأم، مما قد يسهم في تشكيل أنماط هستيرية لاحقةHysterical Organization. كما تؤكد أن الاختلافات التشريحية بين الجنسين (Anatomical Sexual Differences)، لا تُشكّل نقطة البداية للصراع، بل تأتي لاحقًا ضمن تنظيمات نفسية أعمق تشكلت بالفعل في المراحل المبكرة.

التطور النفسي الجنسي والاتجاهات الجنسية المبكرة

في تصور كلاين، ينتقل الطفل في هذه المرحلة من التنظيمات الفموية والشرجية إلى بدايات المرحلة التناسلية Genital Phase، إلا أن هذا الانتقال لا يكون مستقيمًا أو مكتملًا، بل يتأثر بشدة بالخبرات السابقة من الإحباط والعدوان.

عند الذكر، قد يظهر ميل نفسي نحو تثبيت الرغبة على الأم بوصفها كائن الحب الأساسي، مع تطور رغبة في امتلاك القضيب Penis Possession كوسيلة للبقاء في علاقة ارتباط مع الأم. أما عند الأنثى، فإن الاتجاه الليبيدي يتجه تدريجيًا نحو الأب ككائن بديل للرغبة، مع ما يصاحب ذلك من توتر ناتج عن الإحباطات المبكرة في العلاقة مع الأم.

وترى كلاين أن هذه التحولات لا تُفهم بمعزل عن الديناميات اللاواعية المرتبطة بالغيرة Envy والحسد والعدوان المبكر.

الشعور بالذنب وتكوين الأنا العليا Guilt and Superego Formation

تؤكد كلاين أن الشعور بالذنب Guilt يظهر منذ المراحل المبكرة جدًا من التطور النفسي، ويترافق مع الميول الأوديبية منذ بدايتها. ويُعد هذا الشعور نتاجًا مباشرًا لعملية إدخال وتذويت Introjection كائنات الحب الأوديبية، حيث يتم إدخال هذه الكائنات إلى البنية الداخلية لتصبح جزءًا من الأنا العليا Superego، وتذهب كلاين أبعد من التحليل الفرويدي، حيث ترى أن الأنا العليا Superego لا تتكون فقط من تذويت الوالدين بوصفهما كائنين محبين، بل أيضًا من تذويت الصور العدوانية لهما، مما يجعل الأنا العليا بنية متناقضة تجمع بين القسوة الشديدة Harshness والحنان في آن واحد. وتشير إلى أن الأنا العليا تتكون عبر "طبقات" نفسية مختلفة Psychic Strata، أي مستويات زمنية متعددة من الخبرة النفسية، وهو ما يفسر التعايش بين عناصر متناقضة مثل الحب الشديد والعقاب القاسي داخل البنية نفسها.

الأنا العليا والخوف من العقاب Superego and Fear of Retaliation

ترى كلاين أن الخوف من الموت أو العقاب يرتبط بتخيلات طفولية مبكرة، حيث يتصور الطفل أن الكائنات التي يحبها قد تتعرض للتدمير نتيجة رغباته العدوانية تجاهها. وبناءً على مبدأ "العين بالعين" Eye for an Eye تتحول هذه التخيلات إلى تصور بأن الأنا العليا نفسها كيان معاقِب، يعضّ ويقطع ويبتلع. وهكذا، فإن الأنا العليا ليست مجرد سلطة تنظيمية، بل أيضًا كيان داخلي عدواني ناتج عن إسقاط العدوان المبكر وتذويته.

الإحباطات المبكرة وبناء القلق

تشير كلاين إلى أن الإحباطات الفموية والشرجية تمثل النماذج الأولية Prototypes لكل أشكال الإحباط اللاحقة في الحياة، وبالتالي فإنها تلعب دورًا مركزيًا في تشكيل القلق المبكر Early Anxiety ومع ضعف النضج النفسي للطفل، تبقى الأسئلة المرتبطة بعقدة أوديب غير قابلة للتمثيل الرمزي أو التعبير اللغوي، مما يعزز الغموض الداخلي ويزيد من التوتر النفسي. كما ترى أن هذا الغموض يرتبط ارتباطًا وثيقًا بضعف القدرة على المعرفة Epistemic Inhibition حيث يتداخل الجهل Ignorance مع العجز Helplessness، مما يخلق مقاومة تجاه المعرفة والتعلُّم، وقد يظهر لاحقًا في صعوبات معرفية أو تعليمية.

الفضول والمعرفة Curiosity and Epistemic Drive

تعتبر كلاين أن دافع المعرفة Epistemic Drive لا ينشأ في بدايات التطور، بل يتشكل لاحقًا كنتيجة لتحولات في الدوافع العدوانية، حيث يرتبط الفضول في الأصل بالجسد الأمومي Maternal Body إذ يسعى الطفل لاكتشاف ما بداخل جسد الأم، ما يجعل الفضول مرتبطًا بدوافع السيطرة والامتلاك Control and Possession Drives. وهكذا، فإن المعرفة لا تنفصل عن العدوان والذنب، بل تتشكل عبر تفاعل معقد بينهما.

المراحل الجندرية المبكرة والغيرة Gendered Phantasy and Envy

تصف كلاين ما تسميه "المرحلة الأنثوية" Feminine Phase، حيث تتداخل الرغبة في الإنجاب مع الغيرة من الإخوة المحتملين، إلى جانب تخيلات عدوانية تهدف إلى تدميرهم داخل جسد الأم.

كما تشير إلى أن (قلق عقدة الخصاء Castration Anxiety تظهر لدى كلا الجنسين، وإن اختلفت أشكالها، إذ يخشى الطفل الذكر من فقدان قضيبه، بينما تتشكل لدى الأنثى مشاعر حرمان مرتبطة بالعضو الذكري Penis Envy وتؤكد أن هذه المخاوف لا تنفصل عن بنية العلاقة مع الوالدين وادخال صورتهما داخل الأنا العليا.

أثر الصراعات المبكرة على التطور النفسي

تؤكد كلاين أن قوة التحمل النفسي للقلق (Anxiety Tolerance) تلعب دورًا حاسمًا في النمو العقلي. فكلما كانت التثبيتات الفموية والشرجية أكثر شدة، زادت قسوة الأنا العليا، وبالتالي ازدادت صعوبة تكوين علاقة مستقرة مع الموضوع الأمومي. كما أن الصراعات الأوديبية المبكرة، إذا لم تُحل بشكل كافٍ، قد تؤدي إلى اضطرابات في التكيف النفسي والاجتماعي، وتظهر لاحقًا في شكل صراعات عصابية أو اضطرابات في الهوية الجنسية أو العلاقات البينية.

تطور عقدة أوديب عند الإناث وبنية الأنا العليا (Female Oedipal Development and Superego Formation)

تُقدّم ميلاني كلاين تصورًا مميزًا لتطور عقدة أوديب Oedipus Complex عند الفتاة، يختلف في بعض جوانبه عن التصور الفرويدي التقليدي، خاصة فيما يتعلق بمصادر التماهي Identification ودور الغيرة والذنب في تشكيل البنية النفسية المبكرة.

الغيرة المبكرة والتحول نحو الأب

ترى كلاين أن الغيرة من الأم Maternal Envy تنشأ نتيجة إدراك الفتاة لامتلاك الأم أشياء مرغوبة، بما في ذلك ما يُتخيل أنه "امتلاك للعضو الذكري" أو القدرة الإنجابية. هذا الإدراك يولّد مشاعر عدائية تجاه الأم، تتضمن رغبات تدميرية لا واعية تجاه جسدها الداخلي. وفي هذا السياق، يتحول التوجه الليبيدي تدريجيًا نحو الأب، ليس فقط نتيجة "حسد القضيب" Penis Envy كما عند فرويد، بل أيضًا كاستجابة مبكرة لخبرة الفطام Weaning والانفصال عن الأم. وبذلك، يصبح الانتقال إلى الأب نتيجة مركبة تجمع بين الإحباط الأولي تجاه الأم، وتحوّل موضوع الحب نحو بديل أقل تهديدًا من الناحية النفسية.

التماهي المزدوج والصراع الوجداني

تؤكد كلاين أن تماهي الفتاة مع الأب Paternal Identification لا يلغي التماهي مع الأم، بل يتداخل معه بشكل معقد. إذ ينشأ صراع داخلي بين الحب والكراهية تجاه الأم، حيث يترافق التماهي مع الأب مع رغبة في التعويض عن الذنب تجاه الأم من خلال زيادة الحب لها.

غير أن هذا التوازن يبقى هشًا، إذ يؤدي القلق من الخصاء Castration Anxiety إلى تعطيل هذا التماهي الجديد، وإعادة تنشيط مشاعر العدوان والغيرة تجاه الأم، مما يدفع الفتاة إلى التذبذب بين كائني الحب الأساسيين: الأم والأب.

أثر العلاقة مع الأم على تطور العلاقة مع الأب

تشير كلاين إلى أن جودة العلاقة مع الأم تؤثر بشكل مباشر في طبيعة العلاقة مع الأب. فالإحباطات المبكرة في العلاقة مع الأم قد تدفع إلى التعلق بالأب ككائن بديل للحب، بينما يسهم العدوان غير المُعالَج تجاه الأم في تشويه العلاقة مع الرجل لاحقًا. وفي المقابل، فإن العلاقة الإيجابية نسبيًا مع الأم، خاصة تلك المبنية على القدرة على الحب لا العدوان، تسمح بتخفيف الشعور بالذنب وتعزيز القدرة على بناء علاقات مستقرة مع الشريك في مرحلة البلوغ. ومن هنا، ترى كلاين أن البنية العاطفية المبكرة تُعد محددًا أساسيًا لقدرة المرأة على الالتزام العاطفي والاستمرارية في العلاقات (Object Constancy).

الأمومة، الذنب، والجمال

تربط كلاين بين الشعور بالذنب المبكر Early Guilt المرتبط بتخيلات تدمير جسد الأم، وبين تطور المخاوف المتعلقة بالقدرة على الأمومة في المستقبل. فالإحساس الداخلي بأن الأم قد تُدمر أو تُفقد نتيجة العدوان اللاواعي قد يتحول لاحقًا إلى قلق من الفشل في أداء الدور الأمومي Maternal Capacity Anxiety. كما ترى أن هذا القلق ينعكس في الانشغال المفرط بالجمال Concern with Beauty ، حيث يصبح الجسم موضوعًا للمراقبة والإصلاح كتعويض عن الخوف من التلف الداخلي، ويُعد هذا الانشغال مرتبطًا جوهريًا بالشعور بالذنب اللاواعي.

القلق الأنثوي وبنية الأنا العليا

تشير كلاين إلى أن القلق المرتبط بالأنوثة Feminine Anxiety يشبه في بنيته قلق الخصاء عند الذكور Castration Anxiety، إلا أنه أكثر استمرارية بسبب غياب الإدراك المباشر للأعضاء الداخلية عند الفتاة، مما يجعل المخاوف أكثر غموضًا وامتدادًا عبر الزمن. وتؤكد أن الأنا العليا عند الأنثى Female Superego تحمل طابعًا مزدوجًا، إذ تَتَشَكَّل من تَماهيات أمومية وأبوية في آن واحد. فالأنا العليا الأمومية تميل إلى القسوة والمطالبة الأخلاقية الصارمة، بينما تضيف الأنا العليا الأبوية عنصر التنظيم والمعايير الاجتماعية. ويؤدي هذا التداخل إلى بنية أخلاقية داخلية معقدة، تجمع بين المثالية والتضحية من جهة، والغيرة والقسوة من جهة أخرى.

الضمير، التضحية، والإنجاز

ترى كلاين أن النساء قد يُظهرن ميلًا أكبر نحو التضحية الذاتية Altruism مقارنة بالرجال، وهو ما يُفسَّر بخصوصية تطور الأنا العليا الأنثوية، التي تجمع بين القسوة الأمومية والتمثيلات المثالية للأم. وفي هذا السياق، يمكن أن يتحول الشعور بالذنب إلى قوة دافعة للإنجاز Achievement Drive، حيث يسعى الفرد إلى تعويض الإحباط الداخلي عبر العمل والإنتاج، مما يخلق إمكانات إبداعية ومعرفية مميزة.

التماهيات المبكرة والعلاقات البينية

تؤكد كلاين أن التماهيات المبكرة مع الوالدين والأشقاء، تلعب دورًا محوريًا في تكوين الأنا العليا Superego Formation، فالأطفال الآخرون ضمن السياق الأوديبي يُمثلون بدائل رمزية للوالدين، ويشكلون جزءًا من البنية التخيلية التي تُسهم في تشكيل الضمير. كما أن كبت Repression هذه الميول والرغبات المبكرة يولّد شعورًا بالذنب، وهو شعور يسهم بدوره في تعزيز تكوين الأنا العليا، ويترك أثرًا بالغًا في مسار نمو الشخصية وتطورها في المراحل اللاحقة.

التماهي الإسقاطي والبنية الذهانية

يمثل التماهي الإسقاطي (Projective Identification) آلية دفاعية مركزية، حيث يتم إسقاط أجزاء غير مقبولة من الذات على موضوع خارجي، ثم إعادة استبطانها بطريقة مشوهة.

وقد طوّر هذا المفهوم لاحقًا كل من روزنفيلد(Rosenfeld, 1965) ، وأوجدن(Ogden, 1980) ، وغرينبرغ (Greenberg, 1979)، ضمن إطار فهم الاضطرابات الذهانية (Psychotic States) والعلاقات الموضوعية المرضية.

في البنية الذهانية، تؤدي هذه الآلية إلى تشوش الواقع، وانقسام الخبرة النفسية، وهيمنة القلق الاضطهادي، ما ينتج عنه أنماط فصامية أو بارانوية في التنظيم النفسي.

الحداد والذنب والتمييز عن فرويد

تختلف كلاين مع فرويد Freud في تفسير الحداد Mourning فبينما يرى فرويد أن الحداد عملية فصل ليبيدي تدريجية عن الموضوع، ترى كلاين أنه يتضمن دائمًا عنصر الذنب، وأنه يرتبط بالموقف الاكتئابي وبمحاولة إصلاح الكائن الداخلي. وبذلك، فإن الحداد ليس مجرد انسحاب عاطفي، بل عملية نفسية معقدة تشمل إعادة تنظيم العلاقات الداخلية والحفاظ على الموضوعات الجيدة داخليًا.

الأنا العليا والضمير والتضحية

تتكون الأنا العليا من تذويت كائني الأمومية والأبوية، وتُظهر في بنيتها طابعًا مزدوجًا يجمع بين القسوة والرعاية. ويؤدي هذا التداخل إلى ظهور ميول متناقضة بين المثالية Idealization والتضحية Altruism، وبين العدوان والذنب. وترى كلاين أن هذه البنية تفسر ميل بعض الأفراد، خاصة النساء إلى التضحية الذاتية والالتزام الأخلاقي العالي، إلى جانب القلق المفرط والغيرة.

الخلاصة التطورية للنظرية

تخلص كلاين إلى أن عقدة أوديب تبدأ في وقت أبكر بكثير مما افترضه فرويد، وأن المراحل ما قبل التناسلية Pre-genital Phases، لا تُعد مراحل تمهيدية فقط، بل تشكل البنية الأساسية التي تُبنى عليها العقدة والأنا العليا معًا. وبذلك، فإن الصراع الأوديبي لا يظهر فجأة في مرحلة لاحقة، بل يتطور تدريجيًا ضمن تداخل مستمر بين المراحل الفموية والشرجية والتناسلية المبكرة، مما يجعل تأثيره حاسمًا في تشكيل بنية الشخصية Personality Structure والوظائف النفسية الأساسية. وترى كلاين أن هذا الفهم له قيمة علاجية مهمة، خاصة في علاج الأطفال، حيث يمكن تتبع جذور الصراعات النفسية إلى مراحل مبكرة جدًا من النمو، وكذلك في تحليل البالغين، حيث تظهر آثار هذه البنى المبكرة في شكل أعراض عصابية أو ذهانية.

خاتمة نقدية

قدمت نظرية كلاين إسهامًا جوهريًا في تطوير التحليل النفسي، خاصة من خلال نقل التركيز من المراحل الجنسية المتأخرة إلى الحياة النفسية المبكرة جدًا، وإعادة تعريف بنية الأنا العليا والقلق والعلاقات الموضوعية.

إلا أن هذه النظرية واجهت انتقادات تتعلق بطابعها التأويلي (Interpretive Nature) واعتمادها على الاستنتاجات السريرية أكثر من المنهج التجريبي. كما يُؤخذ عليها المبالغة في نسب العمليات الذهانية إلى الطفولة المبكرة جدًا، واستخدام لغة رمزية مكثفة قد تفتقر إلى الدقة العلمية الصارمة.

مع ذلك، يبقى تأثيرها كبيرًا في مجالات التحليل النفسي الحديث، خاصة في فهم العلاقات المبكرة، والاضطرابات الشخصية، والبنى الذهانية، وفي تطوير مدارس لاحقة مثل نظرية العلاقات الموضوعية ونظريات التعلق.

References - المراجع

1. Abraham, K. (1927). *Selected papers on psychoanalysis*. Hogarth Press.
2. Bion, W. R. (1962). *Learning from experience*. Heinemann.
3. Freud, S. (1905/1953). *Three essays on the theory of sexuality*. In J. Strachey (Ed. & Trans.), *The standard edition of the complete psychological works of Sigmund Freud* (Vol. 7, pp. 123–245). Hogarth Press.
4. Freud, S. (1917/1957). *Mourning and melancholia*. In J. Strachey (Ed. & Trans.), *The standard edition of the complete psychological works of Sigmund Freud* (Vol. 14, pp. 243–258). Hogarth Press.
5. Greenberg, J. R., & Mitchell, S. A. (1983). *Object relations in psychoanalytic theory*. Harvard University Press.

6. Hinshelwood, R. D. (1991). *A dictionary of Kleinian thought*. Free Association Books.
7. Isaacs, S. (1948). The nature and function of phantasy. *International Journal of Psycho-Analysis, 29*, 73–97.
8. Klein, M. (1932). *The psycho-analysis of children*. Hogarth Press.
9. Klein, M. (1946). Notes on some schizoid mechanisms. *International Journal of Psycho-Analysis, 27*, 99–110.
10. Klein, M. (1948). On the theory of anxiety and guilt. *International Journal of Psycho-Analysis, 29*, 114–123.
11. Klein, M. (1952). Some theoretical conclusions regarding the emotional life of the infant. In *Developments in psycho-analysis* (pp. 198–236). Hogarth Press.
12. Klein, M. (1957). *Envy and gratitude and other works, 1946–1963*. Tavistock Publications.
13. Mitchell, S. A., & Black, M. J. (1995). *Freud and beyond: A history of modern psychoanalytic thought*. Basic Books.
14. Ogden, T. H. (1979). On projective identification. *International Journal of Psycho-Analysis, 60*, 357–373.
15. Riviere, J. (Ed.). (1952). *Developments in psycho-analysis*. Hogarth Press.
16. Rosenfeld, H. (1965). *Psychotic states: A psycho-analytic approach*. Hogarth Press.
17. Segal, H. (1973). *Introduction to the work of Melanie Klein*. Hogarth Press.
18. Spillius, E. B. (Ed.). (1988). *Melanie Klein today* (Vols. 1–2). Routledge.